

التداولية في الدرس النقدي: الحديث والمعاصر

إن التيار التداولي حقل لساني تبلور في السبعينيات من القرن الماضي ، وهو العلم اللغوي الأحدث بين بقية العلوم اللغوية الأخرى . فهو نظرية نقدية لما يكتمل بناؤها بعد ، استمد قوته من ميدان اهتمامه ، حيث اهتم بدراسة أفعال النطق التي ظلت ردحا من الزمن مغيبة عن الدراسة والتحليل ، بداعي وجود حواجز وهمية بين اللغة والكلام ، بين الدلالة والاستعمال . لذلك فإن أساس التداولية قائم على رفض ثنائية "دي سوسير" الشهيرة ، والتي مفادها أن اللغة وحدها دون الكلام جديرة *langue/parole* اللغة / الكلام بالدراسة العلمية ، وجديرة باهتمام اللسانيين . في حين تهدف التداولية إلى دراسة العلاقات الموجودة بين اللغة ومتداوليها من الناطقين بها . فكان أن حملت على عاتقها مهمة تحليل عمليات الكلام ، ووصف وظائف الألفاظ اللغوية ، وبيان خصائصها عند التواصل اللغوي .

عن التداولية منهج للتحليل ينشد "الحقيقة الفعلية" في تناول الظواهر اللغوية ، أي يحلل ومن هنا وبالنظر إلى .الوقائع ضمن صلتها بسياقاتها الفعلية التي ولدت في حضانها شساعة دائرة اهتمامات التداولية ، صارت نظرية صعبة التقنين وعصية الضبط ، فلا يمكن النظر إليها على أنها مذهب نقدي مختص بآتم معنى الكلمة . فقد تأكد للمختصين في هذا المجال أن الإحاطة بتعريف التداولية صعب ، وأن ضبط مناهجها عناء ، وأن حصر أهدافها مشقة . إلا أن هذا الوصف ينبغي أن يجعلنا نتقبل هذا المذهب بشيء قليل من الدهشة والاستغراب ، خاصة إذا ما علمنا أن التداولية تخضع لهيمنة طائفة من التيارات العلمية المختلفة ، تمس أسسها المنهجية ، بل وقد يتعدى الأمر إلى التشكيك في هويتها كاختصاص لساني ، وفي ذلك يقول د/حسن يوسفى : إن التداولية حقل لساني ملتبس وتبدو) التباساته بحيث يصعب على المتتبع لتطور اللسانيات المعاصرة أن يعرف)... ويستعصى عليه بالتالي . الحدود الفاصلة بين المجالات اللسانية المعروفة وبين التداولية . ([تحديد موضوع هذه الأخيرة ، وإبراز نماذجها النظرية وأجهزتها الإجرائية (4) ومن جهتها تعترف الباحثة "كاترين كبربات أوركيوني" * بهذا الغموض الذي يعترى حدود التداولية بقولها: هل يمكن القول أولا:التداولية أو التداوليات؟.هل هي تخصص أو ملتقى تخصصات مختلفة؟ ([5]). وعلى شاكلتها يقر "دومانجينو" بصعوبة تحديد ماهية *Pragmatique pour le discours littéraire* "التداولية في كتابه "التداولية للخطاب الأدبي

ولهذا تعد التداولية كدراسة علمية في حقل اللسانيات لا يزال السؤال يطرح حول ما إذا تم تحديد ماهيتها كحقل لساني ،وقد انبثق عن هذا إشكاليات معقدة ، من مثل : ما هي حدود وفرضيات وأدوات التداولية ؟ ويأتي الجواب من "أرمونجو فرانسواز" بأن الإجماع لم يتحقق بعد بين الباحثين فيما يخص تحديد فرضياتها ، ولا حتى فيما يخص مصطلحاتها . يلاحظ بجلاء ، على العكس من ذلك ، إلى أي حد تشكل ملتقى غنيا لتداخل الاختصاصات بين اللسانيين ، المناطق ، السيميوطقيين ، الفلاسفة ، علماء النفس ، علماء الاجتماع

6]]].

وعلى الرغم مما يسجل من التداخلات والالتباسات الناجمة عن علاقة التداولية بشتى العلوم ، فقد أمكن تعيين مجموعة من القضايا اللغوية التي هي محل اهتمام التداولية ، وتدخل في نطاق تخصصها . كما تم أيضا معرفة جملة من المسائل التي تشكل موضوعا لها . ومن ذلك محاولة التداولية إيجاد الإجابة للأسئلة التي كانت محل قلق وإزعاج للمباحث اللسانية السابقة . ومن هنا تبدو قيمة البحث التداولي في كونه يسعى إلى الإجابة عن بعض الطروحات اللسانية السابقة ، من قبيل :

. من يتكلم ؟

. - من هو المتلقي ؟

. - ما هي مقصديتنا أثناء الكلام ؟

. - كيف نتكلم بشيء ، ونسعى لقول شيء آخر ؟

. - ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل ؟

(-] هل المعنى الضمني كاف لتحديد المقصود ؟ [7])

إن هذه الأسئلة ، وغيرها مما هو على شاكلتها ، لهي محل إثارة فعلية لقضايا لغوية متعددة المرامي . تتم الإجابة عنها في التداولية بصيغة تتماشى والطابع المتجدد والجدالي لهذا المبحث اللساني الذي يبدي الفكر ويعيد في المباحث والمواقف التي ميّزت الأبحاث اللسانية السابقة ، فيبعث بعضها من جديد ، ويطور بعضها الآخر

وتقر الدراسات المهمة بالنقد الحديث على أن دراسة المعنى وعلاقته بموقف الكلام ، توجه جديد يحتل قمة اهتمامات التداولية . وللكلام جوانب كثيرة طالها مجال الدرس التداولي نجلها في : المخاطبين والمخاطبين ، وسياق التفوه ، والفعل الإنجازي ، والتفوه بوصفه نتاجا . وقد نجم عن هذا الاهتمام العام أن تفرعت عنه موضوعات كثيرة هامة ، تجتهد التداولية في معالجتها والبحث فيها ، منها : المفردات التأشيرية ، والتضمينات المحادثية ، الاقتضاء ، والمعاني الحرفية ، والمعاني السياقية ، وأفعال الكلام وتصنيفاتها ، ... وتحليل الخطاب ، وتحليل المحادثة

وبالنظر إلى مباحثها ، تغدو التداولية بحق - نظرية استعمالية ، حيث تدرس اللغة في استعمال الناطقين بها ، ونظرية تخاطبية تعالج شروط التبليغ والتواصل الذي يقصد إليه الناطقون من وراء الاستعمال للغة ([8]). وبفضل توجهاتها الجديدة هذه ، تحولت الدراسات اللسانية من مجال اللغة إلى مجال الأدب ، ولذلك صارت تنعت بالتداولية الأدبية ، والتي موضوعها دراسة النصوص وتحليلها .

9]]].

هذا التوجه الجديد حدا بالدراسات النقدية الحديثة إلى إحداث تحول في مضامينها أيضا ، فانتقلت بموجب ذلك من الاهتمام بمستويات الصياغة اللفظية والنصية إلى إيلاء الاهتمام بالحدث الأدبي وما يرتبط به من الاتصال الاجتماعي ، أي التحول إلى العناية بالمستوى التواصلية ، وما يتعلق به من سياقات أو تحديدا سياقية . في حين كانت هذه الدراسات تهتم باللغة في مستوى النص كنظام ؛ ويعتبر بهذا بديلاً نقدياً للنظريات الأدبية السابقة ، ... كلسانيات الجملة ، واللسانيات النسقية ، والأسلوبية ، والبنوية

إن هذا العلم الفتى ما فتئ يتطور منذ ظهوره إلى الآن ، حتى أضحي رافداً هاماً من روافد الدراسات اللسانية المعاصرة ، التي اهتمت بالتحليل التداولي الذي يتميز بالتداخل في

الاختصاصات . وعليه فقد جاءت التداولية لتناقض مفهوم الشكل الواحد للمعنى ، وتدعو إلى تفويض مبدأ الاعتداد بالملفوظ اللساني كدليل وحيد ، أو كعامل فريد لبناء جمالية النص ، وتحليل بنيته وفقهه من قبل المتلقي . وإنما يمكن لهذا القارئ أن يعيد إنتاج النص . بواسطة فعل الفهم والإدراك ، بحيث صارت نظرية التلقي وجهاً من وجوه نظرية الأدب فجمالية التلقي لم تكتف بالاعتماد على الذاتية ومعطياتها ، ولا على قراءة الحدس ، وإنما عمدت إلى إشراك فعل الفهم ، والمقدرة العقلية الواعية ، واستثمار مرجعيات كثيرة ومتنوعة ، والتي من شأنها أن تساهم في إنكفاء عملية التفاعل مع بنية النصوص وعبر علاقة حوارية معه ، غرضها إمعان النظر أكثر في ما يعترى القارئ من ردود فعل وقت التلقي، واستقراء كيفية وقوفه بنفسه على حلقات المعرفة وطبقاتها .

وبهذا فإن جمالية القراءة تهدف إلى دراسة ميكانيزم التلقي بواسطة استثمار مقولات الفلسفات الذاتية والحقول الإجرائية الجديدة في تأسيس علم النص . هذا النص الذي من مميزاته أنه يقاوم فكرة اختزان معنى ما ، بقطع النظر أنه سطحي أو عميق ، إنما هو نص قائم منذ البداية على تعددية المعنى ، تشكيلاً وتلقياً ، وأن تحليله هو نشاط نقدي يستند إلى مفاهيم نظرية متنوعة . أما قواعده فهي إجرائية تنزع إلى تنوع الركائز المنهجية التي يتبناها المحلل ، وهو يؤمن بهذه التعددية ، ويعترف بهذا الانفتاح ليتحاشى بذلك الزعم بالقول الفصل ، أضف إلى هذا كله ، الانفتاح على مداخل أخرى تداولية ، من نفسية واجتماعية وسياقية ...إلخ .

مصطفى شعبان

04-22-2017, 05:04 AM

ج.أوستين"وتلميذه"إن المنظرين الأعلام الذين نظّروا لهذا العلم الجديد وأولهم الفيلسوفان "سيرل" ، ثم عالم الاجتماع "غوفمان" ، فالمتخصص في دراسة الأعراق "غمبرز" ، فمدرسة "بالوالتو" ذات التوجه النفسي ، و"فيتغنشتاين"... كل